

الإِسْلَامُ الدِّينُ الْأَبَدِيُّ

عثمان بن جمعة بن عثمان ضميرية

الحمد لله الذي خلق السموات والأرض ، وجعل الظلمات والنور ،
ثم الذين كفروا بربهم يعدلون ، أحمده كما ينبغي لكرم وجهه وعز
سلطانه ، وأستعينه استعانة من لا حول ولا قوة إلا به ، وأستهديه بهداه
الذي لا يضل من أنعم به عليه ، وأستغفره لما أزلفت وأخرت استغفار
من يقر بعبوديته ، ويعلم أنه لا يغفر له ذنبه ولا ينجيه منه إلا هو .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله ، بعثه الله والناس صنفان :

أحدهما : أهل كتاب ، بدّلوا من أحكامه ، وكفروا بالله ، فافتعلوا
كذباً صاغوه بألسنتهم ، فخلطوه بحق الله الذي أنزل إليهم .
فذكر الله لنبيه ﷺ من كفرهم ، فقال ﴿ وَإِنَّ مِنْهُمْ لَفَرِيقًا يَلُودُنَّ
أَلْسِنَهُمْ بِالْكِتَابِ لِتَحْسَبُوهُ مِنَ الْكِتَابِ وَمَا هُوَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَقُولُونَ
هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَمَا هُوَ مِنْ عِنْدِ اللَّهِ وَيَقُولُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ ^(١) .
وصنف : كفروا بالله ، فابتدعوا ما لم يأذن به الله ، ونصبوا بأيديهم
حجارةً وخشباً وصوراً استحسوها ، ونبزوا أسماءً افتعلوها ، ودعّوها
آلهة عبدوها . . . فأولئك العرب .

وسلكت طائفة من العجم سبيلهم في هذا ، وفي عبادة ما استحسوها
من حوتٍ ودابةٍ ونارٍ وغيره ، فذكر الله لنبيه ﷺ جواباً من جواب بعض

(١) سورة آل عمران ، آية [٧٨] .

مَنْ عَبْدٌ غَيْرُهُ مِنْ هَذَا الصَّنْفِ ، فَحَكَى جَلَّ ثَنَاؤُهُ عَنْهُمْ قَوْلَهُمْ
﴿ إِنَّا وَجَدْنَاهُ آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ ﴾^(١) .

فلما بلغ الكتاب أجله ، فحقَّ قضاء الله تعالى بإظهار دينه الذي ارتضى ، فتح سبحانه أبواب سماواته برحمته ، فكان خيرته المصطفى لَوْحِيهِ ، المنتخب لرسالته ، المفضل على جميع خلقه ، محمداً عبده ورسوله ، الذي امتنَّ الله علينا ببعثته^(٢) ، فقال ﴿ لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴾^(٣) ، ف صلى الله تعالى عليه وسلم ، وعلى جميع الأنبياء والمرسلين ، وبعد :

الحاجة إلى الرسالة :

فقد كانت مِنَّةٌ عظيمة ، تلك التي امتنَّها الله على البشرية ، عندما جعل هذا الإنسان أكرم مخلوقاته ، وزوَّده بكل المواهب والملكات التي تساعد على عمارة الأرض ، وفق منهج الله وشريعته ، ليقوم بأعباء وظيفته الخلافة فيها ، وتكفل - سبحانه - باحتياجاته كلها ، ورسم له منهجاً صالحاً لحياته ، يتفق وفطرته التي فطره الله عليها ، من الإيمان بخالقه ومعبوده ومعرفته - سبحانه - بإلهيته وأسمائه وصفاته وأفعاله ، ومن المحال أن تستقل العقول بمعرفة ذلك وإدراكه على وجه التفصيل ، وما كان لهذا الإنسان أن يستقل بوضع منهج متكامل لحياته ؛ لما جُبل عليه من عجز ونقص وضعف ، فاقتضت رحمة الله العزيز الرحيم : أن يبعث الرسل ، به معرِّفين ، وإليه داعين ، ولمن أجابهم مبشرين ، ولمن خالفهم

(١) سورة الزخرف ، آية [٢٣] .

(٢) اقتباس من افتتاحية الإمام الشافعي - رحمه الله - لكتابه : الرسالة ، ص ٧ - ١٣ .

(٣) سورة التوبة ، آية [١٢٨] .

محذرين . فكانت هداية الله تعالى ورسالاته ضرورةً مُلحَّةً وحاجة بشرية ، لا غنى عنها ، ولا استقامة لحياة الناس بدونها .
وقد تكفل الله سبحانه وتعالى — رحمةً منه وفضلاً — بإرسال الرسل وإنزال الكتب والشرائع ، لتستقيم حياة الناس ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنْزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ﴾ ^(١) .
فكان ذلك الموكب الكريم من الرسل ، صلوات الله عليهم وسلامه ، هداة البشرية من لدن آدم ونوح إلى أن خُتموا بمحمد ﷺ وقد جاؤوا كلهم من عند الله تعالى بدين واحد هو الإسلام .

الإسلام بمعناه العام :

والإسلام ، بمعناه العام ، هو إسلام الوجه لله تعالى ، بمعنى التذلل لطاعته والإذعان لأمره والخضوع الكامل له بالجوارح ظاهراً وباطناً والخلوص من الشرك ، بكل صوره وأشكاله ﴿بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُ أَجْرُهُ عِنْدَ رَبِّهِ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ ^(٢) .

وهو دين جميع الأنبياء عليهم السلام :

وقد حكى الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحقيقة ، فأخبر في غير موضع من كتابه : أن الإسلام هو دين جميع الأنبياء والمرسلين من أولهم إلى آخرهم ، وهو دين من اتبعهم من الأمم السابقة ^(٣) .

(١) سورة الحديد ، آية [٢٥] .

(٢) سورة البقرة ، آية [١١٢] .

(٣) انظر تفسير الإمام الطبري ١٤/٢٥ - ١٥ ، تفسير ابن كثير ١٦٧/٢ ، ١٩٩ ، ٤٢٦ ، النبوات : لشيخ الإسلام ابن تيمية ٨٧ ، الجواب الصحيح لمن بدل دين المسيح ، له ٥/١ و ١١ ، ٣٢/٢ - ٣٥ ، الإيمان له أيضاً ٢٤٦ وما بعدها ، شرح العقيدة الطحاوية ٤٦٢ ، تحقيق أحمد شاكر ، مدارج السالكين : لابن القيم ٤٧٥/٣ و ٤٧٦ ، تثبيت دلائل النبوة : للقاظمي عبد الجبار بن أحمد الهمداني ، ١٠٨/١ ، خصائص التصور الإسلامي : لسيد قطب

فقال الله تعالى عن نوح عليه السلام ﴿وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَنْقُومُ إِن كَانَ كِبَرُكُمْ عَلَى مَقَامِي وَتَذِكْرِي بَيَّانَتِ اللَّهُ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنْظِرُونِ ﴿٧١﴾ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَمَا سَأَلْتُكُمْ مِنْ أَجْرٍ إِنْ أَجَرْتُ إِلَّا عَلَى اللَّهِ وَأَمَرْتُ أَنْ أَكُونَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴿٧٢﴾﴾ .

وتلك هي دعوة أبي الأنبياء ، إبراهيم عليه السلام ، دعوة الإسلام الخالص الصريح ، لا يرغب عنها وينصرف إلا ظالم لنفسه ، سفيه عليها ، مستهتر بها ﴿وَمَنْ يَرْغَبْ عَنْ مِلَّةِ إِبْرَاهِيمَ إِلَّا مَنْ سَفِهَ نَفْسَهُ وَلَقَدِ اصْطَفَيْنَاهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الْآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ ﴿١٢٥﴾ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ .

ولذلك يندد الله تعالى بمزاعم اليهود والنصارى وبين لهم حقيقة دين إبراهيم عليه السلام ، فيقول ﴿مَا كَانَ إِبْرَاهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَكِنْ كَانَ حَنِيفًا مُسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٣٠﴾﴾ .

وأخبر الله تعالى عنه وعن ابنه إسماعيل — عليهما السلام — بأنهما مستسلمان لله ، خاضعان لطاعته ، لا يشركان معه في الطاعة أحداً سواه — ولا في العبادة غيره — فهما مسلمان لله ﴿وَإِذْ رَفَعُ إِبْرَاهِيمُ الْقَوَاعِدَ مِنَ الْبَيْتِ وَإِسْمَاعِيلُ رَبَّنَا تَقَبَّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ ﴿١٢٧﴾ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ وَأَرِنَا مَنَاسِكَنَا وَتُبْ عَلَيْنَا إِنَّكَ أَنْتَ التَّوَّابُ الرَّحِيمُ ﴿١٢٨﴾﴾ . ولم يكتف إبراهيم عليه السلام بذلك ، بل تركها كلمة باقية في

عقبه ، وجعلها وصية لذريته ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٢٩﴾ وَوَصَّي بِهَا إِبْرَاهِيمَ بَنِيهِ وَيَعْقُوبَ يَبْنِي إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَى لَكُمْ الدِّينَ فَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴿١٣٠﴾﴾ .

(١) سورة يونس ، آية [٧١ ، ٧٢] .

(٢) سورة البقرة ، آية [١٣٠ ، ١٣١] .

(٣) سورة آل عمران ، آية [٦٧] .

(٤) سورة البقرة ، آية [١٢٧ ، ١٢٨] .

(٥) سورة البقرة ، آية [١٣١ ، ١٣٢] .

وهي الوصية التي كررها يعقوب — عليه السلام — في آخر لحظة من لحظات حياته ، والتي كانت شغله الشاغل الذي لم يصرفه عنه الموت وسكراته ، واستجاب أبناءه لهذه الوصية والدعوة فأسلموا كما أسلم أبوهم ومن سبقه ﴿ أَمْ كُنْتُمْ شُهَدَاءَ إِذْ حَضَرَ يَعْقُوبَ الْمَوْتُ إِذْ قَالَ لِبَنِيهِ مَا تَعْبُدُونَ مِنْ بَعْدِي قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهًا وَاحِدًا وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(١) .

وأخبر سبحانه وتعالى عن يوسف عليه السلام ، وهو يتجه إلى ربه في تسبيح الشاكر الذاكر في كل دعوته ، وهو في أبهة السلطان وفي فرحة تحقيق الأحلام : أن يتوفاه ربه — حين يتوفاه — مسلماً ، فيتم بذلك عليه نعمه في الآخرة — كما أتمها في الدنيا — وأن يلحقه بالصالحين ، وهم إخوانه من النبيين والمرسلين ﴿ رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِنْ تَأْوِيلِ الْأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ أَنْتَ وَلِيِّ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾ ^(٢) .

وقال الله تعالى عن موسى عليه السلام ، وقد دعا قومه إلى الإسلام ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقُومُ إِنْ كُنْتُمْ ءَامِنُ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِنْ كُنْتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ^(٣) .

وفرعون ، عندما أدركه الغرق وعالين الموت ، أعلن إيمانه واستسلامه ، وهو يوقن أن الإسلام هو دعوة موسى عليه السلام ﴿ حَتَّى إِذَا دَرَكَهُ الْغَرَقُ قَالَ ءَامَنْتُ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي ءَامَنْتُ بِهِ بَنُو إِسْرَءِيلَ وَأَنَا مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٤) .

وسحرة فرعون ، لما رأوا آيات ربهم ، وأيقنوا أنهم إليه راجعون ، دعوا الله عز وجل أن يتوفاهم مسلمين لله متابعين لموسى في دينه ، فقالوا

(١) سورة البقرة ، آية [١٣٣] .

(٢) سورة يوسف ، آية [١٠١] .

(٣) سورة يونس ، آية [٨٤] .

(٤) سورة يونس ، آية [٩٠] .

لفرعون ﴿ وَمَا نُنْقِمْ مِنْهَا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِثَابِتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَ تَنَارُ بَنِي إِفْرَاجَ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَقُّفَنَا مُسْلِمِينَ ﴾ ^(١) .

والإسلام هو دعوة سليمان ، عليه السلام ، وقد وجهها أيضاً بلقيس في كتاب كريم ﴿ إِنَّهُ مِنْ سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴾ ^(٢) أَلَا تَعْلَمُونَ عَلَى وَأَنْتُمْ مُسْلِمِينَ ^(٣) فاستنار قلب بلقيس لهذه الدعوة ، وأعلنت إسلامها وتوحيدها مخلصه لله رب العالمين ﴿ قَالَتْ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي وَأَسْلَمْتُ مَعَ سُلَيْمَانَ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ ^(٤) وقال تعالى عن أنبياء بني إسرائيل ﴿ إِنَّا أَنْزَلْنَا التَّوْرَةَ فِيهَا هُدًى وَنُورٌ يَحْكُمُ بِهَا النَّبِيُّونَ الَّذِينَ أَسْلَمُوا لِلَّذِينَ هَادُوا ﴾ ^(٥) .

وأخبر الله تعالى عن حواربي عيسى عليه السلام ، فقال ﴿ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَأَشْهَدُ بِأَنْتَ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٦) .

ولما وجد عيسى - عليه السلام - من بني إسرائيل الذين أرسل إليهم - الكفر ، سألهم من أنصاري إلى الله ؟ فاستجاب الحواريون لدعوة الإيمان بالله واتباع عيسى في دينه الإسلامي وأشهدوه على ذلك ليكتبهم الله مع الذين شهدوا بالحق وأقروا له بالتوحيد ﴿ فَلَمَّا أَحْسَسَ عِيسَى مِنْهُمْ الْكُفْرَ قَالَ مَنْ أَنْصَارِي إِلَى اللَّهِ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنْصَارُ اللَّهِ آمَنَّا بِاللَّهِ وَأَشْهَدُ بِأَنْتَ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٧) رِثَاءً آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ ^(٨)

(١) سورة الأعراف ، آية [١٢٦] .

(٢) سورة النمل ، آية [٣٠ ، ٣١] .

(٣) سورة النمل ، آية [٤٤] .

(٤) قال الإمام الطبري : وإنما عنى الله تعالى ذكره بذلك نبينا محمداً ﷺ في حكمه على الزانين المحصنين من اليهود بالرجم ، وهو منقول عن السدي وقتادة ، وعن عكرمة قال : النبي ﷺ ومن قبله من الأنبياء يحكمون بما فيها من الحق . تفسير الطبري ٦/ ٢٤٨ - ٢٤٩ ، تحقيق الشيخ محمود محمد شاكر ، وانظر تفسير ابن كثير ٢/ ٥٩ - ٦٢ .

(٥) سورة المائدة ، آية [٤٤] .

(٦) سورة المائدة ، آية [١١١] .

(٧) سورة آل عمران ، الآيةان [٥٢ ، ٥٣] .

وهذا خبر من الله عز وجل : أن الإسلام دينه الذي بعث به عيسى والأنبياء قبله ، لا النصرانية ولا اليهودية ، وتبرئة من الله تعالى لعيسى ممن انتحل النصرانية ودان بها ، كما برأ إبراهيم من سائر الأديان غير الإسلام ، وذلك احتجاج من الله - تعالى ذكره - لنبيه ﷺ على وفد نجران^(١) .

وأمر الله تعالى خاتم النبيين محمداً ﷺ بذلك فقال ﴿قُلْ إِنْ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ .

فهو أول المسلمين من هذه الأمة ، لأن إسلام كل نبي متقدم على إسلام أمته ، وهو عليه السلام يبين في هذا الدعاء مسارعته إلى الامتثال بما أمر به ، فلو لم يكن أحد مسلماً لكان هو عليه السلام أول مسلم لله تعالى ، إذ الإسلام دين الأنبياء جميعاً^(٢) .

وكان رسول الله ﷺ إذا قام إلى الصلاة يستفتح بقوله : (وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض حنيفاً مسلماً وما أنا من المشركين ، إن صلاتي ونسكي ومحياي ومماتي لله رب العالمين ، لا شريك له ، وبذلك أمرت وأنا (من) أول المسلمين)^(٣) .

(١) تفسير الإمام الطبري ٤٥١/٦ - ٤٥٢ ، تحقيق محمود شاكر ، ودين المسيح الذي بعثه الله به خلاف دين النصارى .

انظر بالتفصيل : تثبيت دلائل النبوة ، للقاضي عبد الجبار ١١٧/١٠٨/١ ، العلمانية : نشأتها وتطورها وآثارها ، للشيخ سفر عبد الرحمن الحوالي ٢٧ - ٧٥ ، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام للإمام القرطبي ٣٩٣ - ٤٣٨ .

(٢) سورة الأنعام ، آية [١٦٢ ، ١٦٣] .

(٣) تفسير الطبري ١١٢/٨ ، تحقيق شاكر ، ابن كثير ١٩٩/٢ ، تفسير البضاوي ١٩٨ ، تفسير أبي السعود ٣١٥/٢ .

(٤) أخرجه الإمام مسلم ٥٣٤/١ - ٥٣٥ ، كتاب صلاة المسافرين ، وأبو داود ، مختصر المنذري ٣٧٠/١ - ٣٧٢ ما تستفتح به الصلاة ، والترمذي ١٤٩/٥ - ١٥٠ في الدعوات ، والنسائي ١٠٠/٢ في الافتتاح ، وابن خزيمة في صحيحه ٢٣٥/١ في ذكر الدعاء بين تكبيرة الافتتاح . . وابن حبان في موارد الظمان ١٢٤ ، والإمام أحمد في المسند ٢٣٠/١ ، وانظر : مجمع الزوائد ١٠٦/١ - ١٠٧ ، التخليص الحبير : لابن حجر ٢٢٩/٢٨١ ، شرح معاني الآثار : للطحاوي ١٩٩/١ .

فهو صلى الله عليه وسلم على دين التوحيد والإسلام لا اليهودية ولا النصرانية ، كما أن إبراهيم كذلك ، فعن أبي أمامة رضي الله عنه قال : قال النبي ﷺ : (إني لم أبعث باليهودية ولا بالنصرانية ولكن بُعثت بالحنيفية السمحاء) ^(١) .

وأخبر الله سبحانه وتعالى مخاطباً محمداً ﷺ أنه شرع له من الدين ما وصّى به الأنبياء قبله وصية واحدة ، وهي إقامة الدين الحق ﴿ شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ ﴾ ^(٢) .

ثم يخبر الله تعالى أن دين الأنبياء جميعاً دين واحد وملة واحدة ، وهو الدعوة إلى عبادة الله وحده لا شريك له ، فيقول ﴿ يَأَيُّهَا الرَّسُلُ كَلِّمْنَا الْطَّيِّبَاتِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴾ ^(٣) وَإِنْ هَذِهِ أُمَّتُكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَأَنَا رَبُّكُمْ فَاتَّقُونِ ﴾ ^(٤) . ﴿ إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوشَعَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَايَنَادَاؤُ دَرْبُورًا ﴾ ^(٥) وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ^(٦) .

إعلان الوحدة الكبرى للدين :

ثم يدعو الله تعالى المسلمين لإعلان الوحدة الكبرى للدين من لدن أبي الأنبياء إبراهيم عليه السلام إلى عيسى ابن مريم عليه السلام إلى دعوة الإسلام الأخيرة ، ويدعو أهل الكتاب إلى الإيمان بهذا الدين الواحد ﴿ قُولُوا آمَنَّا بِاللَّهِ وَمَا أُنْزِلَ إِلَيْنَا وَمَا أُنْزِلَ إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ

(١) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٢٦٦/٥ ، الخطيب البغدادي في الفقيه والتفقه ٢٠٤/٢ .

(٢) سورة الشورى ، من الآية [١٣] .

(٣) سورة المؤمنون ، آية [٥١ ، ٥٢] .

(٤) سورة النساء ، آية [١٦٣] .

وَالْأَسْبَاطُ وَمَا أُوتِيَ مُوسَى وَعِيسَى وَمَا أُوتِيَ النَّبِيُّونَ مِنْ رَبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴿١﴾ .

ولذلك أشار النبي ﷺ إلى حقيقة دين الأنبياء عليهم السلام ، وأنه الإسلام فأعلن بذلك الوحدة الكبرى للدين ، فقال : (أنا أولى الناس بعيسى ابن مريم في الدنيا والآخرة ، ليس بيني وبينه نبي ، والأنبياء إخوة لعلات ، أمهاتهم شتى ، ودينهم واحد)^(١) .

قاعدة التصور الإسلامي وآثارها :

تلك الوحدة الكبرى بين الرسالات ، وبين الرسل جميعاً ، هي قاعدة التصور الإسلامي ، وهي التي تجعل الأمة المسلمة الأمة الواحدة لتراث العقيدة القائمة على دين الله في الأرض ، الموصولة بهذا الأصل العريق ، السائرة في الدرب على هدى ونور ، والتي تجعل من النظام الإسلامي النظام العالمي الذي يملك الجميع الحياة في ظله دون تعصب ولا اضطهاد ، والتي تجعل من المجتمع الإسلامي مجتمعاً مفتوحاً للناس جميعاً في مودة وسلام^(٢) .

وهكذا تتلقى الأمة المسلمة تراث الرسالة كله ، وتقوم على دين الله في الأرض ، ويشعر المسلمون — من ثم — بضخامة دورهم في هذه الأرض

(١) سورة البقرة ، آية [١٣٦] .

(٢) أخرجه البخاري ، فتح الباري ٤/٧٨ في أحاديث الأنبياء ، ومسلم ١٨٤٧/٤ كتاب الفضائل ، وأبو داود ، مختصر المنذري ٤٢/٧ كتاب السنة ، والإمام أحمد في مسنده ٢١٩/٣ ، ٤٠٦ ومواضع أخرى .

والإخوة لعلات هم الإخوة لأبٍ واحد وأمهاتهم شتى . غريب الحديث للخطابي ١٦٠/٢ ، الفائق للزمخشري ٤٤/٣ .

(٣) في ظلال القرآن للشهيد سيد قطب ١١٧/١ — ١١٨ ، وانظر : دراسات قرآنية للأستاذ محمد قطب — حفظه الله — ٩٠ ، ٩١ ، ١٠٤ .

إلى يوم القيامة . فهم الحراس على أعز رصيد عرفته البشرية في تاريخها الطويل ، وهم المختارون لحمل راية الله - وراية الله وحدها - في الأرض ، يواجهون بها رايات الجاهلية المختلفة الشارات ، من قومية ووطنية وجنسية وعنصرية وصهيونية وصليبية واستعمارية وإلحادية . . . إلى آخر شارات الجاهلية التي يرفعها الجاهليون في الأرض ، على اختلاف الأسماء والمصطلحات ، واختلاف الزمان والمكان^(١) .

التوحيد قاعدة كل رسالة من عند الله :

وقد جاء الرسل والأنبياء - عليهم الصلاة والسلام - من عند مرسل واحد - سبحانه - بكلمة واحدة هي كلمة التوحيد ، ودعوة واحدة هي دعوة التوحيد ، فالتوحيد هو قاعدة كل ديانة جاء بها من عند الله رسول .
ويقرر الله تعالى في القرآن الكريم هذه الحقيقة ويؤكددها ، ويكررها في قصة كل رسول ، وعلى لسان كل واحد منهم ، كما يقررها إجمالاً على وجه القطع واليقين ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ﴾ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿٢﴾ . ﴿وَالْإِلَٰهَ أَحَدٌ قَالِ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ ﴿٣﴾ . ﴿وَالْإِلَٰهَ أَحَدٌ قَالِ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْوِينَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿٤﴾ . ﴿وَالْإِلَٰهَ أَحَدٌ قَالِ يَتَقَوَّمُوا عِبَادُ اللَّهِ مَا لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ قَدْ جَاءَ تَكْوِينَهُ مِنْ رَبِّكُمْ﴾ ﴿٥﴾ . ﴿وَهَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَىٰ﴾ ﴿٦﴾ إِذْ رَأَىٰ أَنَارًا فَقَالَ لِأَهْلِهِ امْكُثُوا إِنِّي آنَسْتُ نَارًا عَلَيَّ أَنْ يَكُونَ مِنْهَا يَسِيرٌ أَوْ جِدُّ عَلَى النَّارِ هَدًى ﴿٧﴾ فَلَمَّا أَنَّهُ نَادَىٰ يَمُوسَىٰ ﴿٨﴾ إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَخَلَعَ تَخَلُّعًا لَكَ بِأَلْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى ﴿٩﴾ وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَىٰ

(١) في ظلال القرآن ٣/٤٢٢ .

(٢) سورة الأعراف ، آية [٥٩] .

(٣) سورة الأعراف ، آية [٦٥] .

(٤) سورة الأعراف ، آية [٧٣] .

(٥) سورة الأعراف ، آية [٨٥] .

﴿١٣﴾ إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي ﴿١﴾ . ﴿٢﴾ وَإِذْ قَالَ اللَّهُ يَحْيَى ابْنُ مَرْيَمَ أَأَنْتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَهَيْنِ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالَ سُبْحَنَكَ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِي بِحَقٍّ إِنْ كُنْتُ قُلْتُهُ فَقَدْ عَلِمْتَهُ تَعَلَّمَ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَالِمُ الْغُيُوبِ ﴿١٣﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَّا أُمِرْتُ بِهِ أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ رَبِّي وَرَبَّكُمْ وَكُنْتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مِمَّا دُمْتُ فِيهِمْ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِي كُنْتُ أَنْتَ الرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ وَأَنْتَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ شَهِيدٌ ﴿١٤﴾ .

ويقرر الله تعالى هذه الحقيقة قاعدة عامة في دعوة كل الرسل فيقول سبحانه ﴿١﴾ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ مِنْ رَسُولٍ إِلَّا نُوحِي إِلَيْهِ أَنَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدُونِ ﴿٣﴾ . ﴿٢﴾ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَسُولًا أَنْتِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ ﴿٤﴾ .

التوحيد مفتاح دعوة الرسل :

فالتوحيد هو مفتاح دعوة الرسل ، وهو أول ما يدخل به المرء في الإسلام وآخر ما يخرج به من الدنيا ، فهو أول واجب وآخر واجب^(٥) ،

(١) سورة طه ، الآيات [٩ ، ١٤] .

(٢) سورة المائدة ، الآيتان [١١٦ — ١١٧] .

(٣) سورة الأنبياء ، آية [٢٥] .

(٤) سورة النحل ، من الآية [٣٦] .

(٥) مدارج السالكين : لابن القيم ٤٤٣/٣ — ٤٤٤ . والتوحيد نوعان : توحيد في المعرفة والإثبات ، وهو توحيد الربوبية والأسماء والصفات ، وتوحيد في الطلب والإرادة ، وهو توحيد الإلهية والعبادة .

أما توحيد الربوبية فهو توحيد الله تعالى بأفعاله والإقرار بأنه وحده خالق كل شيء ومليكه وإليه يرجع الأمر كله في التصريف والتدبير ، وهو يستلزم ويقضي توحيد الألوهية والعبادة ، وهو أفراد الله تعالى بالعبادة والتأله قولاً وقصداً وفعلًا . وتوحيد الأسماء والصفات هو الإيمان بما وصف الله تعالى به نفسه في كتابه وبما وصفه به رسوله ﷺ من غير تحريف ولا تعطيل ومن غير تكييف ولا تمثيل . انظر بالتفصيل : مدارج السالكين ، نفسه ، شرح العقيدة الطحاوية ١٩ — ٣٤ ، شرح كتاب التوحيد ١٧ — ٢٠ ، مذكرة التوحيد لفضية الشيخ عبد الرزاق عفيفي ٣٦/٢٠ ، شرح العقيدة الواسطية للهراس ٢٠ — ٢٢ ، واقرأ الباب الثاني من طريق الدعوة في ظلال القرآن ، جمع أحمد فائز ، الجزء الثاني . والمجلد الثاني من مجموع فتاوى شيخ الإسلام ابن تيمية ، رحمه الله تعالى .

ولهذا قال النبي ﷺ لمعاذ بن جبل رضي الله عنه وقد بعثه إلى اليمن :
(إنك تأتي قوماً من أهل الكتاب ، فليكن أول ما تدعوهم إليه
عبادة الله وحده - وفي رواية : فادعهم إلى شهادة أن لا إله إلا الله
وأني رسول الله - فإن هم أطاعوا لك فأعلمهم أن الله افترض
عليهم خمس صلوات في كل يوم وليلة ، فإن هم أطاعوا لك
فأعلمهم أن الله افترض عليهم صدقة في أموالهم تؤخذ من
أغنيائهم فترد في فقرائهم ، فإن أطاعوا بها فخذ منهم وتوق كرائم
أموالهم) ^(١) .

وقال رسول الله ﷺ : (أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا
إله إلا الله وأن محمداً رسول الله ، ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة ،
فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام ،
وحسابهم على الله) ^(٢) .

وقد جعل الإمام البخاري - رحمه الله - هذا الحديث تفسيراً لقوله
تعالى ﴿ فَإِنْ تَابُوا وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ فَخَلُّوا سَبِيلَهُمْ ﴾ ^(٣) ، فالتخليفة
في هذه الآية والعصمة في ذلك الحديث بمعنى واحد ^(٤) .

(١) أخرجه البخاري ، الفتح ٢٦١/٣ ، كتاب الزكاة ، ومسلم ٥٠/١ ، ٥١ كتاب الإيمان ،
وأبو داود ١٩٩/٢ - ٢٠٠ ، والترمذي ٦٩/٢ ، والنسائي ٢/٥ - ٤ ، وابن ماجه ٥٦٨/١ كلهم
في الزكاة ، والإمام أحمد في المسند ٢٣٣/١ ، وكرائم الأموال هي جامعة الكمال الممكن في
حقها من غزارة لبن وجمال صورة أو كثرة لحم وصوف .

(٢) أخرجه البخاري ٧٥/١ كتاب الإيمان ، ومسلم أيضاً ٥١/١ - ٥٢ ، وأبو داود ١٦٣/٢ - ١٦٩
في الزكاة والترمذي ١١٧/١ في الإيمان ، والنسائي ١٤/٥ ، وابن ماجه ٢٧/١ والإمام أحمد
١١/١ ، والدارمي في سننه ٣٧٩/١ ، وابن أبي شيبة في المصنف ١١/٣ .

(٣) سورة التوبة ، آية [٥] .

(٤) فتح الباري بشرح صحيح البخاري : للحافظ ابن حجر ٧٥/١ .

حقيقة واحدة :

فكل الرسل — عليهم الصلاة والسلام — قد أدركوا حقيقة « التوحيد » ، وكلهم بُعثوا بها ، وكلهم دعا إلى عبادة الله الواحد ، دعا إلى الحقيقة التي تلقاها وأمر أن يبلغها ، وكان إدراكهم لها هو المنطق الفطري الناشئ من إيقاع الناموس الواحد في الفطرة الواصلة ، كما أن نهوضهم لتبليغها هو النتيجة الطبيعية لإيمانهم المطلق بكونها الحقيقة ، وبكونها صادرة إليهم من الله الواحد الذي لا يتعدد . . . ومن ثم كان هناك مصدر واحد يتلقى منه البشر التصور الصادق الكامل الشامل لحقيقة الوجود كله ، ولحقيقة الإنسان ، ولغاية الوجود كله وغاية الوجود الإنساني .

ثبات .. لا تطور ..

مصدر واحد هو مصدر الرسالات . . . جبهة واحدة لا تتعدد ، هي التي أنزلت الكتاب بالحق ، هذا الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه ، وهو كتاب واحد في حقيقته جاء به الرسل جميعاً ، فهو كتاب واحد في أصله ، وهي ملة واحدة في مجموعها ، وهو تصور واحد في قاعدته : إله واحد ، ورب واحد ، ومعبود واحد ، ومشرّع واحد لبني البشر ، ثم تختلف التفصيلات بعد ذلك وفق حاجات الأمم والأجيال ، ووفق أطوار الحياة والارتباطات ، حتى تكون الصورة الأخيرة التي جاء بها الإسلام ، وأطلق الحياة تنمو في محيطها الواسع الشامل بلا عوائق بأمر الله ومنهجه وشريعته الحية المتجددة في حدود ذلك المحيط الشامل الكبير .

وهذا الذي يقرره القرآن ، في أمر الكتاب ، هو النظرية الإسلامية في

خط سير الأديان والعقائد . . . كل نبي جاء بهذا الدين الواحد في أصله ، الذي يقوم على القاعدة الأصلية : قاعدة التوحيد المطلق . . . ثم يقع الانحراف عقب كل رسالة ، وتتراكم الخرافات والأساطير حتى يبتعد الناس نهائياً عن ذلك الأصل الكبير ، وهنا تجيء رسالة جديدة ، تجدد العقيدة الأصيلة ، وتنفي ما علق بها من الانحرافات وتراعي أحوال الأمة وأطوارها في التفصيلات .

وهذا الثبات في أصل التصور الإيماني هو الذي يتفق مع وظيفة الكتاب الذي أنزله الله بالحق ليحكم بين الناس فيما اختلفوا فيه في كل زمان ، ومع كل رسول ، منذ أقدم الأزمان^(١) .

لا نفرق بين أحد من رسله :

ولذلك كان الإيمان برسل الله جميعاً ، دون تفريق ، هو شرط الإيمان ، وعدم الإيمان بواحد منهم هو كفر بهم جميعاً ، إذ الإيمان لا يتجزأ ، فعندما يكفر بواحد من رسل الله يكون قد كذب الله الذي أرسله ولأن جميع الرسل عليهم السلام جاؤوا بكلمة التوحيد ، فإن الله سبحانه يقول عمن يكذب بواحد منهم إنهم يكذبون الرسل — مع أنهم لم يرسل إليهم إلا رسولا واحداً ، ليوحي التعبير بأن تكذيب الرسول الواحد هو بمثابة تكذيب الرسل كلهم ، لأنهم كلهم يقولون ذات الشيء بلا تغيير — فمن كذب واحداً منهم فقد كذبهم جميعاً^(٢) .

(١) مقتطفات من طريق الدعوة في ظلال القرآن ٢١/٢ - ٣٣ ، وانظر : الإسلام في مواجهة التحديات : للمودودي ٤٣ - ٤٨ ، وله أيضاً الحضارة الإسلامية ١٧٢ - ١٧٥ ، العبودية : لابن تيمية ٨٣ ، الدين : للدكتور محمد عبد الله دراز ١٠٣ وما بعدها ، مستقبل الحضارة بين العلمانية والإسلام : يوسف كمال ١٦٠ .

(٢) دراسات قرآنية : للأستاذ محمد قطب ١٠٢ ، وفيه شرح لوسائل القصص القرآني في إبراز قضية التوحيد على لسان كل الرسل .

- ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ نُوحٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٠٥) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ نُوحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٠٦﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿١﴾ .
 ﴿ كَذَبَتْ عَادُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٢٣) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ هُودٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٢٤﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٢﴾ .
 ﴿ كَذَبَتْ ثَمُودُ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٤١) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ صَالِحٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٤٢﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٣﴾ .
 ﴿ كَذَبَتْ قَوْمُ لُوطٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٦٠) إِذْ قَالَ لَهُمْ أَخُوهُمْ لُوطٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٦١﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٤﴾ .
 ﴿ كَذَبَ أَصْحَابُ نِجْةٍ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (١٧٦) إِذْ قَالَ لَهُمْ شُعَيْبٌ أَلَا تَتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾ إِنِّي لَكُمْ رَسُولٌ أَمِينٌ ﴿٥﴾ .

ولذلك يتوعد الله تبارك وتعالى أولئك الذين يكذبون واحداً من الرسل ، فيقول ﴿ إِنَّ الَّذِينَ يَكْفُرُونَ بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيُرِيدُونَ أَنْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ اللَّهِ وَرُسُلِهِ وَيَقُولُوا نُؤْمِنُ بِبَعْضٍ وَنَكْفُرُ بِبَعْضٍ وَيُرِيدُونَ أَنْ يَتَّخِذُوا بَيْنَ ذَلِكَ سَبِيلًا ﴾ (١٥٠) أُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ حَقًّا وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُهِينًا ﴿٦﴾ .

وذلك هو شأن اليهود والنصارى ، الذين كذبوا رسل الله إلى خلقه بوحيه ، حيث فرقوا بين الله ورسله في الإيمان ، فآمنوا ببعض الأنبياء وكفروا ببعض ، بمجرد التشهي والعادة وما أُلْفُوا عليه أباءهم ، لا عن دليل قادم إلى ذلك ، فإنه لا سبيل إلى ذلك الدليل . بل بمجرد الهوى والعصبية ، فاليهود — عليهم لعائن الله — : آمنوا بالأنبياء إلا عيسى ومحمداً ، عليهما الصلاة والسلام ، والسامرة منهم : لا يؤمنون بنبي بعد يوشع خليفة موسى بن عمران . والنصارى الضالون : آمنوا بعيسى (٧) وبالأنبياء من قبله ، وكفروا بخاتمهم وأشرفهم محمد ﷺ ومن كلا الفريقين أو الطائفتين من آمن بنبوة محمد ﷺ ولكن على أنه نبي للعرب

(١) سورة الشعراء ، الآيات [١٠٥ — ١٠٧] .

(٢) سورة الشعراء ، الآيات [١٢٣ — ١٢٥] .

(٣) سورة الشعراء ، الآيات [١٤١ — ١٤٤] .

(٤) سورة الشعراء ، الآيات [١٦٠ — ١٦٢] .

(٥) سورة الشعراء ، الآيات [١٧٦ — ١٧٨] .

(٦) سورة النساء ، الآيات [١٥٠ — ١٥١] .

(٧) آمنوا به على أنه إله أو ابن إله ، فكفروا بذلك كفراً مضاعفاً .

خاصة ، وليست رسالة عامة للبشر كافة ، ولا لبني إسرائيل - بزعمهم - ^(١) ونحو هذا من تفرقاتهم التي كانت تعتاً وزوراً وضلالة ، واتخذوا بين أضعاف ذلك طريقاً إلى الضلالة التي أحدثوها ، والبدعة التي ابتدعوها ، - يدعون الناس إليه ، فكفروا عندئذ بالله ورسله على ما يؤدي إليه مذهبهم وتقتضيه آراؤهم وتحكماتهم - وإن لم يصرحوا بأنهم يؤمنون بالله ويكفرون برسله - بل حصل كفرهم بطريق الالتزام ... فالإيمان ببعض الأنبياء والرسل والكفر ببعضهم الآخر كفر بالله تعالى وتفرق بين الله ورسله ، لأنه عز وجل قد أمرهم بالإيمان بجميع الأنبياء عليهم الصلاة والسلام ، وما من نبي إلا وقد أخبر قومه بحقيقة دين نبينا محمد ﷺ فمن كفر بواحد كفر بالكل وبالله تعالى أيضاً من حيث لا يشعر .

الكفر بواحد من الرسل كفر بالجميع :

والمقصود : أن من كفر بنبي من الأنبياء فقد كفر بسائر الأنبياء ، فإن الإيمان واجب بكل نبي بعثه الله تعالى إلى أهل الأرض ، فمن رد نبوته للحسد أو العصبية أو التشهي يتبين أن إيمانه بمن آمن به من الأنبياء ليس إيماناً شرعياً ، إنما هو عن غرض وهوى وعصبية ^(٢) .

(١) ومنهم فرقة العيسوية من اليهود ، وهي تقول بنبوته ﷺ ومعجزاته وتكر أنه بعث إلى غير العرب ، انظر : اعتقادات فرق المسلمين : للرازي ٨٣ ، كشف الأسرار : لعلاء الدين البخاري ١٥٧/٣ ، بين الإسلام والمسيحية : لأبي عبيدة الخزرجي ٢٦٢ - ٢٦٣ ، وللدرد على ما تعلق به أهل الكتاب من الآيات لإثبات زعمهم هذا ، انظر : الجواب الصحيح : لابن تيمية ٢٨/١ وما بعدها .

(٢) انظر : تفسير الطبري ٣٥٢/٩ - ٣٥٣ ، طبع شاكر ، ابن كثير ٥٧٣/١ ، البحر المحيط : لأبي حيان ٣٨٥/٣ ، تفسير الفخر الرازي ٩٣/١١ - ٩٥ ، روح المعاني للآلوسي ٤/٥ - ١٥ ، الجواب الصحيح : لابن تيمية ٣١/١ - ٣٧ ، ١٦١ - ١٧٥ ، مجموع الفتاوى : لشيخ الإسلام ٢٠٣/٤ - ٢٠٨ ، الرسالة المحمدية : للسيد سليمان الندوي ٢٢٣ - ٢٢٦ .

وأخرج الإمام الطبري بسنده عن قتادة في تفسير آية النساء السابقة أنه قال : أولئك أعداء الله ، اليهود والنصارى ، آمنت اليهود بالتوراة وموسى ، وكفروا بالإنجيل وعيسى ، وآمنت النصارى بالإنجيل وعيسى ، وكفروا بالقرآن وبمحمد ﷺ ، فاتخذوا اليهودية والنصرانية ، وهما بدعتان ليستا من الله وتركوا الإسلام ، وهو دين الله الذي بعث به رسله ^(١) .

التصور الإسلامي لوحدة الرسالة والرسل :

والقرآن الكريم ينكر على هؤلاء وهؤلاء ، ويقرر التصور الإسلامي الشامل الكامل عن الإيمان بالله ورسله . ويدون تفريق كذلك بين رسل الله جميعاً .

إن التوحيد المطلق لله سبحانه يقتضي توحيد دينه الذي أرسل به الرسل للبشر ، وتوحيد رسله الذين حملوا هذه الأمانة للناس ، وكل كفر بوحدة الرسل أو وحدة الرسالة هو كفر بوحدانية الله في الحقيقة ، وسوء تصور لمقتضيات هذه الوحدانية ، فدين الله للبشر ومنهجه للناس هو هو ، لا يتغير في أساسه ، كما أنه لا يتغير في مصدره .

ولذلك عبّر السياق القرآني هنا عمن يريدون التفرقة بين الله ورسله — بأن يؤمنوا بالله ويكفروا بالرسل — وعمن يريدون التفرقة بين الرسل — بأن يؤمنوا ببعض ويكفروا ببعض — عبر عن هؤلاء وهؤلاء بأنهم : «الذين يكفرون بالله ورسله» و«أولئك هم الكافرون حقاً» .

أما المسلمون : فهم الذين يشتمل تصوره الاعتقادي على الإيمان بالله ورسله جميعاً بلا تفرقة ، فكل الرسل عندهم موضع اعتقاد واحترام ، وكل الديانات السماوية عندهم حق ، ما لم يقع فيها التحريف ، فلا

(١) تفسير الطبري ٣٥٤/٩ شاکر ، وهو مروي أيضاً عن الحسن والسدي وابن جريج ، انظر : البحر المحیط : لأبي حيان ٣/٣٨٥ .

تكون عندئذ من دين الله وإن بقي جانب منها لم يُحرّف ، إذ أن الدين وحدة ، وهم يتصورون الأمر كما هو في حقيقته : إلهاً واحداً . . . وموكب الإيمان في حسهم موصول بعقيدة نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد وإخوانهم من الرسل ، صلوات الله وسلامه عليهم جميعاً .

﴿ءَاَمَنَ الرَّسُولُ بِمَا أُنْزِلَ إِلَيْهِ مِنْ رَبِّهِ وَالْمُؤْمِنُونَ كُلٌّ ءَاَمَنَ بِاللّٰهِ وَمَلَكِيَّاتِهِ وَكُتُبِهِ وَرُسُلِهِ لَا تَفْرِقَ بَيْنَ أَحَدٍ مِنْ رُسُلِهِ وَقَالُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا غُفْرَانَكَ رَبَّنَا وَإِلَيْكَ الْمَصِيرُ﴾^(١) . ﴿إِنَّا أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ كَمَا أَوْحَيْنَا إِلَى نُوحٍ وَالنَّبِيِّينَ مِنْ بَعْدِهِ وَأَوْحَيْنَا إِلَى إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ وَيَعْقُوبَ وَالْأَسْبَاطِ وَعِيسَى وَأَيُّوبَ وَيُوسُفَ وَهَارُونَ وَسُلَيْمَانَ وَءَاتَيْنَا دَاوُدَ زَبُورًا ﴿١٦٣﴾ وَرُسُلًا قَدْ قَصَصْنَاهُمْ عَلَيْكَ مِنْ قَبْلُ وَرُسُلًا لَمْ نَقْصُصْهُمْ عَلَيْكَ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾^(٢) .

ولذلك استحقوا الأجر من الله تعالى واستحقوا أن يكونوا هم المؤمنون حقاً في مقابل أولئك الكافرين حقاً ﴿وَالَّذِينَ ءَامَنُوا بِاللّٰهِ وَرُسُلِهِ وَلَمْ يُفَرِّقُوا بَيْنَ أَحَدٍ مِنْهُمْ أُولَٰئِكَ سَوْفَ يُؤْتِيهِمْ أَجْرُهُمْ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا﴾^(٣) .

ولله في هذا حكمة :

والإسلام إنما يتشدد هذا التشدد في توحيد العقيدة في الله ورسله :

أ — لأن هذا التوحيد هو الأساس اللائق بتصور المؤمن له سبحانه .

ب — كما أنه هو الأساس اللائق بوجود منظم غير متروك للتعدد والصدفة والتصادم .

ج — ولأنه هو العقيدة اللائقة بإنسان يرى وحدة الناموس في هذا الوجود أينما امتد بصره .

(١) سورة البقرة ، آية [٢٨٥] .

(٢) سورة النساء ، الايتان [١٦٣ — ١٦٤] .

(٣) سورة النساء ، آية [١٥٢] .

د — ولأنه التصور الكفيل بضم المؤمنين جميعاً في موكب واحد يقف أمام صفوف الكفر ، وفي حزب واحد يقف أمام أحزاب الشيطان ... ولكن هذا الصف الواحد ليس هو صف أصحاب الاعتقادات المحرّفة — ولو كان لها أصل سماوي — إنما هو صف أصحاب الإيمان الصحيح والعقيدة التي لم يدخلها انحراف .

هذا الدين وهذه الأمة :

ومن ثم كان الإسلام هو « الدين » الذي لا يقبل الله من الناس غيره ، لأنه هو الذي يتفق مع وحدانية الله ومقتضيات هذه الوجدانية ، وكان « المسلمون » « خير أمة أُخرجت للناس » ... المسلمون المعتقدون عقيدة صحيحة ، العاملون بهذه العقيدة ، لا كل مَنْ وُلِدَ في بيت مسلم ، ولا كل من لأك لسانه كلمة الإسلام .

... وفي ظل هذا البيان يبدو الذين يفرقون بين بعض الرسل وبعض منقطعين عن موكب الإيمان ، مفرّقين للوحدة التي جمعها الله ، منكرين للوجدانية التي يقوم عليها الإيمان بالله^(١) .

بين الإيمان والإسلام :

وبعد أن عرفنا الإسلام بمعناه العام ، حري بنا أن نتعرف على معناه في لسان اللغة العربية ، ثم في اصطلاح الشرع ، بمعناه الخاص ، ونوازن هذا المعنى بمعنى الإيمان .

معنى الإيمان لغةً :

الإيمان له في لغة العرب استعمالان ، لأنه تارة يتعدى بنفسه ،

(١) في ظلال القرآن ، ٦/٧٩٧ - ٧٩٨ ، ٨٠٤ - ٨٠٥ ، طريق الدعوة في ظلال القرآن ٢/٣٤ -

فيكون معناه التأمين ، أي إعطاء الأمان ، تقول : آمنت فلاناً إيماناً ، وأمنتَه تأميناً ، بمعنى واحد . قال الله تعالى ﴿وَأَمْنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾^(١) ومنه اسمه تعالى « المؤمن » لأنه آمن عباده من أن يظلمهم .
وتارة يتعدى بالباء أو اللام ، فيكون معناه التصديق^(٢) ، ﴿قُولُوا ءَامَنَّا بِاللَّهِ﴾ ﴿أَفَنَظْمُعُونَ أَنْ يُؤْمِنُوا لَكُمْ﴾^(٣)

معنى الإسلام لغة :

وأما الإسلام ، فأصل مادة اشتقاقه هي السين واللام والميم ، يقول العلامة اللغوي ابن فارس في مادة : « سلم » : السين واللام والميم ، معظم بابه من الصحة والعافية ، فالسلامة أن يسلم الإنسان من العاهة والأذى ، قال أهل العلم : الله ، جل ثناؤه ، هو السلام ، لسلامته مما يلحق المخلوقين من العيب والنقص والفناء .
ثم يقول : ومن الباب أيضاً : الإسلام وهو : الانقياد ، لأنه يسلم من الإباء والامتناع^(٤) .

ويقول الراغب الأصفهاني : الإسلام هو الدخول في السلم ، وهو أن يسلم كل واحد منهما من أن يناله من ألم صاحبه^(٥) .

والإسلام — أيضاً — يستعمل في لغة العرب متعدياً ولزماً :
أما استعماله متعدياً : فتقول : أسلمت الشيء إلى فلان ، إذا أخرجته إليه ، ومنه : السَّلم في البيع ، أي السلف فيه ، وسلَّمه الله تعالى من

(١) سورة قريش ، آية [٤] .

(٢) المختار من كنوز السنة : للدكتور محمد عبد الله دراز ، ص ٦٩ ، وانظر : عمدة القاري : شرح البخاري ١٠٢/١ .

(٣) سورة البقرة ، آية [٧٥] .

(٤) معجم مقاييس اللغة : لابن فارس ٩٠/٣ .

(٥) مفردات القرآن : للراغب الأصفهاني ٢٤٠ .

الآفة تسليماً ، وسلّمته إليه تسليماً فتسلّمه ، أعطيته فتناوله . وأسلم العدو : خذله ، وأسلم أمره إلى الله : سلمه . وكان ابن عمر رضي الله عنهما ، ينهى أن يقال : أسلمت إلى فلان أو أعطيته السّلم ، بمعنى السلف ، وكان يقول : الإسلام لله ، وأحب أن يكون هذا الاسم محضاً في طاعة الله لا يدخله شيء غيره . وعند استعماله لازماً يكون معناه : الانقياد والدخول في السلم ، أي الاستسلام ، كما أن الإصباح هو الدخول في الصباح ، والإحرام هو الدخول في الحرمة . ومعنى الإسلام لازماً يرجع إلى معناه متعدياً ، لأن من انقاد واستسلم للغير فقد سلّم إليه نفسه وألقى إليه بمقاليد^(١) .

موازنة بين الإسلام والإيمان في اللغة :

وبالمقارنة بين هاتين الكلمتين في استعمالها لازمتين ، نجد أن التصديق ، وهو اعتقاد الصدق ، محله القلب ، وإذا سمينا الإقرار والاعتراف باللسان تصديقاً ، فإنما نسميه بذلك لكونه ترجمة لذلك التصديق القلبي وعبارة عنه ، وكذلك امثال الأمر يسمى تصديقاً - لغوياً - من باب المجاز .

أما الانقياد ، وهو الطاعة والامتثال فإنه بحسب حقيقته اللغوية يتسع للمراتب الثلاثة لأنه إما بالظاهر أو الباطن أو بكليهما ، وعلى هذا فمعنى الإسلام لغة أعم من الإيمان عموماً مطلقاً .

وعلى هذا يكون معنى الإسلام غير معنى الإيمان لأن أحدهما استسلام بالظاهر والآخر إذعان بالباطن ، - ولا تلازم بينهما - بل قد

(١) انظر : ترتيب القاموس المحيط ٦٠٣/٢ ، الصحاح : للجوهري ١٩٥٠/٥ - ١٩٥٢ ، غريب الحديث : للإمام الخطابي ٤١١/٣ ، مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦٣٥/٧ ، المختار من كنوز السنة ٦٩ - ٧١ .

يوجد كل منهما بدون الآخر ، كالمؤمن بالشيء يكتسب إيمانه فيكون مؤمناً به غير مسلم ، والجاحد بالشيء يتظاهر أنه موقن فيكون مسلماً غير مؤمن . وقد يجتمعان إذا تطابق الظاهر والباطن على أمر واحد فكان القول والعمل به مصداقاً للاعتقاد له ^(١) .

الإيمان والإسلام في الاصطلاح الشرعي :

وفي الاصطلاح الشرعي فكثيراً ما نجد أنه يراد بهما ذلك المعنى اللغوي نفسه بدون تصرف ، ويراد بالإيمان مطلق التصديق بحق أو باطل ، ويراد بالإسلام مطلق الانقياد لأيّ أمر . وكثيراً ما يراد بهما معنى أخص صار في العرف الشرعي حقيقة جديدة ، فيراد من الإيمان خصوص التصديق بخبر السماء المنزل على الأنبياء ، ويراد من الإسلام خصوص الانقياد لله رب العالمين . وضابط ذلك أن ننظر في الموضع الذي يذكر فيه أحدهما ، فإن كانا متعلقين بأن قيل : « إيمان بكذا » أو « إسلام لكذا » عرفنا أنهما بمعناهما اللغوي البحت ، أي مطلق التصديق والانقياد لما تعلقا به ، وأما إذا ذكرا هكذا بدون متعلق ، فالمراد بهما تلك الحقيقة الشرعية الخاصة وهي التصديق بالحق والانقياد له ^(٢) .

معنى الإيمان شرعاً :

وعندئذ ، فالإيمان مجموع مركب من ثلاثة عناصر أو أجزاء :
الأول : وهو الجزء الذي لا غنى عنه بحال - وإذا عدم عدت حقيقة الإيمان - وهو « الاعتقاد » أي العلم الجازم بكل ما ثبت بالضرورة أنه

(١) المختار من كنوز السنة : د . محمد عبد الله دراز ٧٠ ٧٢ .

(٢) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

جاء من عند الله على لسان رسله ، ولا بد من اليقين الجازم من الرضى والارتياح النفساني لهذه العقيدة ، فإذا تحقق هذا الجزء الأول فقد وُجد أساس الإيمان .

الثاني : إعلان هذه العقيدة بالقول أو غيره من كل ما يدل عليها دلالة ظاهرة ، وهذا الاعتراف الظاهري يعد ترجمة عن العقيدة يدل دلالة ظنية عليها .

والثالث : العمل بكل ما أمر الله به من فريضة ونافلة ، والانتهاز عما نهى الله عنه من حرام وشبهة صغيرة وكبيرة في سره وعلايته بقلبه وجارحته^(١) .

معنى الإسلام شرعاً :

والإسلام يجمع معنيين ، أحدهما : الانقياد والاستسلام ، والثاني : إخلاص ذلك وإفراده لله ، وعنوانه قول : لا إله إلا الله .

وله : معنيان ، أحدهما : الدين المشترك ، وهو عبادة الله وحده لا شريك له ، الذي بُعث به جميع الأنبياء ، وقد سبق شرح هذا المعنى .

والثاني : ما اختص به نبينا محمد ﷺ من الشرعة والمنهاج ، وهو الشريعة والطريقة والحقيقة ، وله مرتبتان :

إحدهما : الظاهر من القول والعمل ، وهو المباني الخمس ، أركان الإسلام .

والثانية : أن يكون ذلك الظاهر مطابقاً للباطن^(٢) .

ويقول الراغب الأصفهاني : الإسلام في الشرع على ضربين :

أحدهما : دون الإيمان ، وهو الاعتراف باللسان ، وبه يحقن الدم ،

(١) المرجع السابق ، ص ٧٣ .

(٢) انظر : مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٦٣٥/٧ - ٧٣٦ .

حصل معه الاعتقاد أو لم يحصل ، وإياه قصد بقوله تعالى ﴿ قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا ﴾^(١) .

والثاني: فوق الإيمان : وهو أن يكون مع الاعتراف اعتقاد بالقلب ووفاء بالفعل واستسلام لله في جميع ما قضى وقدر ، كما ذكر عن إبراهيم عليه السلام في قوله ﴿ إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾^(٢) وقوله ﴿ تَوَفَّنِي مُسْلِمًا وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ ﴾^(٣) أي اجعلني ممن استسلم لرضاك^(٤) .

هل الإيمان والإسلام مترادفان أم متغايران؟

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية : قد صار الناس في مسمى الإسلام على ثلاثة أقوال : قيل هو الإيمان ، وهما اسمان لمسمى واحد ، وقيل : هو الكلمة .

ولكن التحقيق ابتداء هو ما بينه النبي ﷺ لما سئل عن الإسلام والإيمان ، ففسر الإسلام بالأعمال الظاهرة والإيمان بالأصول الخمسة^(٥) فليس لنا إذا جمعنا بين الإسلام والإيمان أن نجيب بغير ما أجاب به النبي ﷺ ، وأما إذا أفرد اسم الإيمان فإنه يتضمن الإسلام ، وإذا أفرد الإسلام ، فقد يكون مع الإسلام مؤمناً ، بلا نزاع ، وهذا هو الواجب ، وهل يكون مسلماً ولا يقال له مؤمن ؟ ... وكذلك هل يستلزم الإسلام للإيمان ؟ هذا فيه النزاع ... والوعد الذي في القرآن بالجنة وبالنجاة من

(١) سورة الحجرات ، آية [١٤] .

(٢) سورة البقرة ، آية [١٣١] .

(٣) سورة يوسف ، آية [١٠١] .

(٤) مفردات الراغب الأصفهاني ٢٤١ ، وانظر : تهذيب اللغة : للأزهري ٤٥١/٢ - ٤٥٢ ، لسان

العرب : لابن منظور ١٨٥/٥ وما بعدها .

(٥) أركان الإيمان كما جاءت في الحديث ستة : ويمكن أن يكون الإيمان بالقدر جزء من الإيمان

بالله ، فتكون الأصول أو الأركان خمسة .

العذاب إنما هو معلق باسم الإيمان ، وأما اسم الإسلام مجرداً ، فما علّق به في القرآن دخول الجنة ، لكنه فرضه وأخبر أنه دينه الذي لا يقبل من أحد سواه^(١) .

ويستخلص المتتبع لاستعمالات الإيمان والإسلام في القرآن الكريم والسنة النبوية « قاعدة استقرائية » وهي أنهما « إذا اجتمعا افترقا ، وإذا افترقا اجتمعا » .

أما أنهما إذا اجتمعا افترقا ، فمعناه أنهما إذا ذكرا لفظاً في سياق واحد كان لفظ الإيمان باقياً على أصل اختصاصه بالاعتقاد والإسلام باقياً على اختصاصه بالعمل . وأما أنهما إن افترقا اجتمعا ، فمعناه إذا ذكر أحد اللفظين في معرض المدح والثناء بدون الآخر ، ولم تكن هناك قرينة دالة على اختصاص اللفظ بأصل معناه ، كان المراد بالمذكور معناه ومعنى صاحبه الذي اقترن به^(٢) .

أصل معنى كلمة « الإسلام » :

وأصل كلمة « الإسلام » هو الاستسلام والخضوع ، لأنه من : « استسلمت لأمره » ، وهو الخضوع لأمره ، وإنما سُمّي « المسلم » مسلماً بخضوع جوارحه لطاعة ربه كما جاء عن الربيع وأبي العالية وسعيد بن جبير في قوله تعالى ﴿ بَلَى مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ ﴾^(٣) يقول : أخلص له العمل . وكما قال زيد بن عمرو بن نفيل :

وَأَسْلَمْتُ وَجْهِي لِمَنْ أَسْلَمْتُ له المزن تحمل عذبا زلالا

(١) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٢٥٩/٧ - ٢٦٠ ، وانظر : ص ٣٧٥ - ٣٧٦ ، شرح العقيدة الطحاوية ٢٩٤ - ٢٩٨ .

(٢) المختار من كنوز السنة ٩١ - ٩٥ ، فتح الباري : لابن حجر ١١٥/١ .

(٣) سورة البقرة ، آية [١١٢] .

يعني بذلك : استسلمت لطاعة من استسلم لطاعته المزن وانقادت له^(١) .

وجاء تفسير الآية بإخلاص العمل ، عن ابن عباس رضي الله عنهما ، وكذلك قال مقاتل : هي إخلاص العمل وإخلاص الدين والتوحيد ، وقيل إخلاص القصد . وقيل : الخضوع والتواضع .

وقد أمر الله تعالى إبراهيم عليه السلام بالإخلاص له والاستسلام والانقياد ، فأجاب إلى ذلك قدراً وشرعاً^(٢) ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾^(٣) .

وهذه المعاني كلها متقاربة ولا تنافي بينها ، وما قد يظهر فيها من خلاف فهو اختلاف تنوع ، لا اختلاف تضاد ، واختلاف التنوع هذا على نوعين :

أحدهما : أن يعبر كل واحد منهم عن المراد بعبارة غير عبارة صاحبه ، تدل على معنى في المسمى غير المعنى الآخر ، مع اتحاد المسمى .

والثاني : أن يذكر كل منهم من الاسم العام بعض أنواعه على سبيل التمثيل وتنبية المستمع على النوع^(٤) .

(١) تفسير الطبري ٥١٠/٢ - ٥١١ ، تفسير ابن كثير ١٥٥/١ .

(٢) ابن كثير ١٨٦/١ ، وانظر : الوجوه والنظائر في القرآن : لمقاتل بن سليمان ١٣٥ - ١٣٦ ، البحر المحيط : لأبي حيان ٣٥٢/١ ، تفسير أبي السعود ٢٦٠/١ ، روح المعاني : للألوسي ٣٦٠/١ .

(٣) سورة البقرة ، آية [١٣١] .

(٤) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ٣٣٣/١٣ ، ٣٣٧ ، مقدمة في أصول التفسير ٣٨ - ٤٢ ، بتحقيق الدكتور عدنان محمد زرزور ، وفي اقتضاء الصراط المستقيم ٣٧ - ٣٨ ، تفصيل آخر لأوجه اختلاف التنوع ، وأن كل واحد من المختلفين مصيب فيه بلا تردد . وانظر العقيدة الطحاوية ٤٦٠ - ٤٦٤ .

فالإسلام يتضمنه الاستسلام لله وحده ، فمن استسلم له ولغيره كان مشركاً ، ومن لم يستسلم له كان مستكبراً عن عبادته ، والمشرک والمستكبر عن عبادته كافر ، والاستسلام له وحده عبادته وحده وطاعته وحده .
فهذا دين الإسلام الذي لا يقبل الله غيره ، وذلك إنما يكون بأن يطاع في كل وقت بفعل ما أمر به في ذلك الوقت ، فإذا أمر في أول الأمر باستقبال الصخرة ، ثم أمرنا ثانياً باستقبال الكعبة ، كان كل من الفعلين حين أمر به داخلاً في الإسلام .

فالدين هو الطاعة والعبادة له في الفعلين ، وإنما تتنوع بعض صور الفعل ، وهو وجه المصلي ، فكذلك الرسل دينهم واحد ، وإن تنوعت الشريعة والمنهاج والوجه والنسك ، فإن ذلك لا يمنع أن يكون الدين واحداً ، كما لم يمنع ذلك في شريعة الرسول الواحد^(١) .

الدين واحد والشرائع متعددة :

فإذا كان الدين واحداً ، فإن الشرائع مختلفة في الأوامر والنواهي ، فقد يكون الشيء في هذه الشريعة حراماً ، ثم يحل في الشريعة الأخرى ، وبالعكس ، وقد يكون خفيفاً في شريعة فيزداد بالشدة في الشريعة الأخرى ، وقد تختلف طرق العبادة ، نظراً لاختلاف الناس وطرق تعليمهم باختلاف استعداداتهم وظروف بيئتهم في مختلف العصور والأزمان ، إذ أن الشريعة تأتي لتلبية حاجات الناس ، وهذه قد تختلف من أمة لأخرى ومن زمن لآخر . كما تختلف الشرائع في شمولها لبعض الأحكام مما لم يكن منصوباً عليه في شريعة سابقة خاصة ، لأن كل شريعة لاحقة إنما جاءت مكملة أو موضحة لشريعة سابقة أو مصححة لما وقع فيها من انحراف .

(١) انظر : مجموع الفتاوى ٩٠/٣ - ٩٢ ، اقتضاء الصراط المستقيم ٤٥٤ - ٤٥٥ ، الإيمان

ومن أوضح ذلك ما جاءت به شريعتنا الإسلامية من تعاليم ، مما لم يكن في الشرائع السابقة مما يحتاج إليه الناس في حياتهم اليومية وفي روابطهم الشخصية ومعاملاتهم لبعضهم البعض ، فردية كانت هذه المعاملات أو جماعية ، كبيان نظم البيع والشراء والإيجار في العقارات والمنافع ... وغير ذلك من ضروب المعاملات .

وهذا الاختلاف بشتى صوره ، إنما يقتضيه ما لله تعالى من الحكمة البالغة والحجة الدامغة في اختلاف صور العبادات والشرائع باختلاف استعداد الأقوام ومقتضيات الزمان والمكان^(١) .

وقد أشار الله سبحانه وتعالى إلى كثير من هذه المعاني ، فقال عن عيسى عليه السلام ﴿وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَلَأُحِلَّ لَكُمْ بَعْضَ الَّذِي حُرِّمَ عَلَيْكُمْ﴾^(٢) ، وقال عن دعوة محمد ﷺ ﴿يَأْمُرُهُم بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ﴾^(٣) ﴿يَتَأْهِلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ﴾^(٤) . ثم وضع قاعدة عامة ، فقال سبحانه ﴿وَلِكُلِّ وُجْهَةٌ هُوَ مُوَلِّهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ أَيْنَ مَا تَكُونُوا يَأْتِ بِكُمْ اللَّهُ جَمِيعًا إِنَّ اللَّهَ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾^(٥) .

فلكل أهل ملة وجهة هو مولئها ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : يعني بذلك أهل الأديان ، يقول لكل أهل ملة قبله يرضونها ، ووجه الله — تبارك وتعالى اسمه — حيث توجه المؤمنون .

(١) انظر : حجة الله البالغة للدهلوي ٨٦/١ .

(٢) سورة آل عمران ، آية [٥٠] .

(٣) سورة الأعراف ، آية [١٥٧] .

(٤) سورة المائدة ، آية [١٥] .

(٥) سورة البقرة ، آية [١٤٨] .

وقال أبو العالية : لليهودي وجهة هو مولياها ، وللنصراني وجهة هو مولياها ، وهذاكم أنتم أيها الأمة ، إلى القبلة التي هي القبلة^(١) .
 وهذا شبيهه بقوله تعالى ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَاءِ آتَانَكُمْ فَاسْتَشِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيَنْتِخِمُ بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخَلِّفُونَ ﴾^(٢) . قال الإمام الطبري : ومعنى الكلام : لكل قوم منكم جعلنا طريقاً إلى الحق يؤمّه وسبيلاً واضحاً يعمل به^(٣) .
 واختلف أهل التأويل في المعنى بقوله تعالى ﴿ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً ﴾^(٤) فقال بعضهم : عنى بذلك أهل الملل المختلفة ، أي أن الله جعل لأهل كل ملة شريعة ومنهاجاً ، وفسر قتادة الشريعة والمنهاج فقال : سبيلاً وسنةً ، والسنن مختلفة ، للتوراة شريعة وللإنجيل شريعة وللقرآن شريعة يحلّ الله فيها ما يشاء ويحرم ما يشاء ، بلاءً ، ليعلم من يطيعه ممن يعصيه ، ولكن الدين الواحد الذي لا يقبل الله غيره : التوحيد والإخلاص لله ، الذي جاءت به الرسل ، لأن الله تعالى ذكر ما كتب على بني إسرائيل في التوراة ، وتقدم إليهم بالعمل بما فيها ، ثم ذكر أنه قفى بعيسى ابن مريم على آثار الأنبياء قبله وأنزل عليه الإنجيل وأمر من بعثه إليه بالعمل بما فيه ، ثم ذكر نبينا محمداً ﷺ ، وأخبره أنه أنزل إليه الكتاب مصدقاً لما بين يديه من الكتاب ، وأمره بالعمل بما فيه والحكم بما أنزل إليه فيه دون ما في سائر الكتب غيره ، وأعلمه أنه قد جعل له ولأمته شريعة غير شرائع الأنبياء والأمم قبله الذين قص عليه قصصهم ، وإن كان دينه ودينهم ، في توحيد الله والإقرار بما جاءهم به من عند الله

(١) تفسير الطبري ١٩٢/٣ - ١٩٣ ، تحقيق محمود شاكر ، تفسير ابن كثير ١٩٥/١ .

(٢) سورة المائدة ، آية [٤٨] .

(٣) انظر : الطبري ٢٦٩/٦ - ٢٧٠ ، ابن كثير ٦٧/٢ ، معالم التنزيل : للبغوي ٧٠/٢ ،

٢٣١/٧ ، فتح الباري : لابن حجر ٤٦/١ و ٤٨ ، ٢٦٩/٦ .

(٤) سبقت .

والانتهاء إلى أمره ونهيه واحداً ، فهم مختلفو الأحوال فيما شرع لكل واحد منهم ولأمرته فيما أحل لهم وحرم عليهم ، فقال سبحانه ﴿ وَكُنَّا عَلَيْهِمْ فِيهَا أَنْ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ وَالْعَيْنَ بِالْعَيْنِ وَالْأَنْفَ بِالْأَنْفِ وَالْأُذُنَ بِالْأُذُنِ وَالسِّنَّ بِالسِّنِّ وَالْجُرُوحَ قِصَاصٌ فَمَنْ تَصَدَّقَ بِهِ فَهُوَ كَفَّارَةٌ لَهُ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (٤٥) وَفَقِينَا عَلَى أَنْثَرِهِمْ بَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَآتَيْنَاهُ الْإِنْجِيلَ فِيهِ هُدًى وَنُورٌ وَمُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ التَّوْرَةِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةً لِّلْمُتَّقِينَ ﴿٤٦﴾ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فِيهِ وَمَنْ لَمْ يَحْكَمْ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤٧﴾ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ مِنَ الْكِتَابِ وَمُهَيِّمًا عَلَيْهِ فَاحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا وَلَوْ شَاءَ اللَّهُ لَجَعَلَكُمْ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَكِنْ لِنَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ إِلَى اللَّهِ مَرْجِعُكُمْ جَمِيعًا فَيُنَبِّئُكُمْ بِمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١﴾ .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : وأما تنوع الشرائع وتعددتها ، فقال تعالى لما ذكر القبلة بعد الملة بقوله ﴿ قَوْلٍ وَجْهَكَ شَطْرَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ ﴾ (٢) إلى قوله ﴿ وَلِكُلِّ وَجْهَةٌ هُوَ مَوْلَاهَا فَاسْتَبِقُوا الْخَيْرَاتِ ﴾ (٣) فأخبر أن لكل أمة وجهة ، ولم يقل : جعلنا لكل أمة وجهة : بل قد يكون هم ابتدعوها كما ابتدعت النصارى وجهة المشرق ، بخلاف ما ذكره في الشرع والمنهاج ، فإنه قال ﴿ يَتَأْتِيهَا الرِّسُولُ لَا يَحْزَنُكَ الَّذِينَ يُسْكِرُونَ فِي الْكُفْرِ ﴾ (٤) إلى قوله ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (٥) .

وهذه الآيات نزلت بسبب الحكم في الحدود والقصاص والديات ، أخبر الله تعالى أن التوراة يحكم بها النبيون الذين أسلموا للذين هادوا

(١) سورة المائدة ، الآيات [٤٤ - ٤٨] .

(٢) سورة البقرة ، آية [١٤٨] .

(٣) سورة المائدة ، آية [٤١] .

(٤) سورة المائدة ، آية [٥٠] .

والربانيون والأخبار بما استحفظوا من كتاب الله ، وهذا عام في النبيين جميعاً والربانيين والأخبار ، ثم لما ذكر الإنجيل قال ﴿ وَلِيَحْكُمَ أَهْلُ الْإِنْجِيلِ بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ فِيهِ ﴾^(١) فأمر هؤلاء بالحكم ، لأن الإنجيل بعض ما في التوراة وأقر الأكثر ، والحكم بما أنزل الله فيه حكم بما في التوراة أيضاً . ثم قال ﴿ فَأَحْكُم بَيْنَهُم بِمَا أُنْزِلَ اللَّهُ وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ عَمَّا جَاءَكَ مِنَ الْحَقِّ لِكُلِّ جَعَلْنَا مِنْكُمْ شِرْعَةً وَمِنْهَاجًا ﴾^(٢)

فأمره أن يحكم بما أنزل الله على من قبله ، لكل جعلنا من الرسولين والكتابين شرعة ومنهاجاً ، أي سنة وسبيلاً ، فالشرعة : الشريعة ، وهي السنة ، والمنهاج : الطريق والسبيل . وكان هذا بيان وجه تركه لما جعل لغيره من السنة والمنهاج إلى ما جعل له ، ثم أمره أن يحكم بينهم بما أنزل الله إليه : فالأول : نهى له أن يأخذ بمنهاج غيره وشرعته .

والثاني : وإن كان حكماً غير الحكم الذي أنزل ، نهى له أن يترك شيئاً مما أنزل فيها اتباع محمد ﷺ الذي يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل ، فمن لم يتبعه لم يحكم بما أنزل الله ، وإن لم يكن من أهل الكتاب الذين أمروا أن يحكموا بما فيها مما يخالف حكمه^(٣) .

وكما أمر الله تعالى نبينا محمداً ﷺ في هذه الآيات أن يحكم بما أنزل الله إليه دون ما في سائر الكتب ، أمره كذلك مرة أخرى أن يحكم بهذه الشريعة التي جعلها الله له ، من بعد الذي آتاه بني إسرائيل الذين وصف له صفتهم في اختلافهم بغياً بينهم ، فقال سبحانه ﴿ وَلَقَدْ آتَيْنَا بَنِي إِسْرَءِيلَ الْكِتَابَ وَالْحُكْمَ وَالنُّبُوَّةَ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾^(٤)

(١) سبقت .

(٢) سبقت .

(٣) مجموع فتاوى شيخ الإسلام ١١٢/١٩ - ١١٣ ، وهي منشورة مجموعة الرسائل المنيرة ١٢٨/٣ - ١٦٥ قاعدة في توحيد الملة وتعدد الشرائع .

وَأَيِّنَّهُمْ يَبَيِّنُ مِنَ الْأَمْرِ فَمَا اخْتَلَفُوا إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَيْنَهُمْ إِنَّ رَبَّكَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَمَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١٧﴾ ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَى شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ .

ويقول الشيخ ولي الله الدهلوي : إن أصل الدين واحد اتفق عليه الأنبياء عليهم السلام ، وإنما الاختلاف في الشرائع والمناهج ، تفصيل ذلك : أن الأنبياء عليهم السلام أجمعوا على توحيد الله تعالى : عبادةً واستعانةً ، وتنزيهه عما لا يليق بجنابه ، وتحريم الإلحاد في أسمائه ، وأن حق الله على عباده أن يعظموه تعظيماً لا يشوبه تفريط ، وأن يسلموا وجوههم وقلوبهم إليه ، وأن يتقربوا بشعائر الله إلى الله ، وأنه قدر جميع الحوادث قبل أن يخلقها ، وأن لله ملائكة لا يعصون الله فيما أمر ويفعلون ما يؤمرون ، وأنه ينزل الكتاب على من يشاء من عباده ، ويفرض طاعته على الناس . . . فهذا أصل الدين ، ولذلك لم يبحث القرآن العظيم عن ملية هذه الأشياء ، إلا ما شاء الله ، فإنها كانت مسلمة فيمن نزل القرآن بالسنتهم ، وإنما الاختلاف في صور هذه الأمور وأشباهها ، فكان في شريعة موسى عليه السلام الرجم فقط ، وجاءت شريعتنا بالرجم للمحصن والجلد لغيره ، وجاء في شريعة موسى عليه السلام القصاص فقط ، وجاءت شريعتنا بالقصاص والدية جميعاً ، وعلى ذلك اختلافهم في أوقات الطاعات وآدابها وأركانها .

وبالجملة : فالأوضاع الخاصة التي مهدت وبينت بها أنواع البر والارتفاقات هي الشرعة والمنهاج^(١) .

(١) سورة الجاثية ، الآيات [١٦ - ١٨] .

(٢) انظر : حجة الله البالغة : للدهلوي ٨٦/١ - ٨٧ .

كل دين عقيدة ومنهج حياة :

فظهر بذلك أن كل دين من عند الله تعالى يتضمن جانبين اثنين :
العقيدة والشرعة ، إذ أن طبيعة الدين ، أي دين ، أن يتضمن تنظيمًا
لحياة الناس بالشرع ، وألا يقتصر على الجانب العقدي أو التهذيبي
الأخلاقي ، ولا على المشاعر الوجدانية وحدها ، ولا على العبادات والشعائر
وحدها كذلك ، فهذا لا يكون ديناً ، فما الدين إلا منهج الحياة الذي
أراد الله للبشر ، ونظام الحياة الذي يربط حياة الناس بمنهج الله ، ولا
يمكن أن ينفك عنصر العقيدة الإيمانية عن الشعائر التعبدية عن القيم
الخلقية عن الشعائر التنظيمية في أي دين يريد أن يصرف حياة الناس وفق
المنهج الإلهي ، وأي انفصال لهذه المقومات يُبطل عمل الدين في النفوس
وفي الحياة ويخالف مفهوم الدين وطبيعته ، كما أَرَادَهُ اللهُ سبحانه^(١) .
وإذا كانت العقيدة — كما سبق — واحدة لا تختلف فإن الشريعة لكل
قوم مبيّنة لغيرها من الشرائع ، وبكلا الجانبين جاءت الآيات القرآنية
الكريمة ولا تعارض بينها إذ أن كل آية دلت على عدم التباين في الدين
فهي دالة على أصول الدين ، وأما الآيات الدالة على حصول التباين
فمحمولة على الفروع وما يتعلق بظواهر العبادات ، فجائز أن يتعبد الله
عباده في كل وقت بما يشاء^(٢) .

هل اسم الإسلام خاص بهذه الأمة ؟

ووقع النزاع بعد ذلك في اختصاص اسم الإسلام بهذه الأمة ، هل

(١) انظر : الظلال ٣/٤٠٠ ، المستقبل لهذا الدين ٣ ، ٢٦ ، خصائص التصور الإسلامي . ١٣٠ —

١٣٥ ، الإسلام على مفترق الطرق : لمحمد أسد ١٧ — ٢٥ .

(٢) تفسير الخازن ٢/٥٠ — انظر : الفخر الرازي ١٢/١٤ ، فتح الباري ١٥/٤٩ ، شرح الطحاوية

٤٦٤ وما بعدها .

هو خاص بها أم يوصف به من سبقها من الأمم ويطلق على من آمن بنبيه من أمة موسى وعيسى وغيرهما من الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى نبينا وتسليمه ؟

وللعلماء في هذه المسألة قولان مشهوران ، حكاهما غير واحد من الأئمة :

أحدهما : أنه يطلق الإسلام على كل دين حق ، ولا يختص بهذه الملة ، وبهذا أجاب ابن الصلاح - رحمه الله - فقال : يطلق اسم الإسلام على الجميع ، وهو اسم لكل دين حق لغة وشرعاً ، فقد ورد ذلك بألفاظ راجعة إلى هذا في كتاب الله تعالى ^(١) .

واستدل لهذا الرأي بقوله تعالى ﴿ فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٣٥﴾ فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ ﴾ ^(٢) وبقوله تعالى ﴿ قَالُوا نَعْبُدُ إِلَهَكَ وَإِلَهَ آبَائِكَ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ إِلَهاً وَاحِداً وَنَحْنُ لَهُ مُسْلِمُونَ ﴾ ^(٣) وقوله تعالى ﴿ وَقَالَ مُوسَى يَقَوْمِ إِن كُنتُمْ ءَامِنُونَ بِاللَّهِ فَعَلَيْهِ تَوَكَّلُوا إِن كُنتُمْ مُسْلِمِينَ ﴾ ^(٤) .

وأجاب الإمام السيوطي عن ذلك أنه كان يطلق فيما تقدم على الأنبياء ، وما أطلق على غيرهم إلا على سبيل التغليب أو على سبيل التبعية ^(٥) .

والقول الثاني : أن الإسلام خاص بهذه الملة الشريفة ، ووصف المسلمين خاص بهذه الأمة المحمدية ، ولم يوصف به أحد من الأمم السابقة سوى الأنبياء فقط ، وقد خصت هذه الأمة من بين سائر الأمم

(١) فتاوى ابن الصلاح في التفسير والعقائد ، ص ٣٧ ، ضمن مجموعة الرسائل المنيرية ، في الجزء الرابع .

(٢) سورة الذاريات ، الآيتان [٣٥ - ٣٦] .

(٣) سورة البقرة ، آية [١٣٣] .

(٤) سورة يونس ، آية [٨٤] .

(٥) الحاوي للفتاوى : لجلال الدين السيوطي ٢٢٤/٢ .

بخصائص لم تكن لأحد سواها ، إلا للأنبياء فقط .
ومن الأدلة التي ترجح هذا القول : قوله تعالى ﴿ وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ ۚ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ ۚ مَلَّةً أَيْكُمْ ۚ إِنَّ رَبَّهٖم هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلُ وَفِي هَٰذَا لَيْكُنَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ۚ ﴾^(١) ، فلو لم يكن قوله سبحانه ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ ﴾ خاصاً بهذه الأمة ، كالذي ذكر قبله من الهداية ورفع الحرج ، لم يكن لتخصيصه بالذكر ولاقترانه بما قبله معنى .

ولم يذكر الله سبحانه بالإسلام غير هذه الأمة ، ولم نسمع بأمة ذكرت بالإسلام غيرها ، ونصوص أئمة السلف المفسرين من الصحابة وغيرهم من التابعين وأتباعهم : إن الله تعالى سمى هذه الأمة « المسلمين » في اللوح المحفوظ وفي التوراة والإنجيل وسائر الكتب المنزلة وفي القرآن الكريم ، فإنه اختصهم بهذا الاسم من بين سائر الأمم فلا يُدعون إلا به^(٢) ، كما قال رسول الله ﷺ : (من دعا بدعوى الجاهلية فإنه من جثى جهنم) ، قالوا : يا رسول الله وإن صام وإن صلى ؟ قال : (نعم) ، وإن صام وإن صلى وزعم أنه مسلم ، فادعوا المسلمين بأسمائهم ، بما سماهم الله عز وجل : المسلمين المؤمنين ، عباد الله عز وجل^(٣) .

(١) سورة الحج ، آية [٧٨] .

(٢) انظر : الحاوي : للسيوطي ٢/٢١٥ - ٢١٧ ، تفسير الطبري ١٧/٢٠٧ - ٢٠٨ ، تفسير ابن

كثير ٢/٢٣٧ ، روح المعاني : للآلوسي ١٧/٢١٠ .

(٣) أخرجه الإمام أحمد في المسند ٤/١٣٠ و ٥/٣٤٤ ، والترمذي في الأمثال ٤/٢٢٦ - ٢٢٧ وقال :

حسن صحيح غريب ، وقال ابن كثير في التفسير ١/٥٩ هذا حديث حسن وعزاه للنسائي في

٣/٢٣٧ ، وأخرج الأجري في الشريعة قطعة منه بإسناده ص ٨ . وقوله من جثى جهنم - وفي

المسند جثاء - أي من جماعاتها ، والجثوة : ما جمع من تراب وغيره ، فاستعيرت ، وروي :

« جثي » وهو جمع جاث ، من قوله تعالى ﴿ حول جهنم جثياً ﴾ . انظر : الفائق : للزمخشري

١/١٩٠ ، ترتيب القاموس المحيط ١/٤٤٥ .

وقال الله تعالى حكاية عن إبراهيم عليه السلام ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ﴾^(١) ، دعا بذلك لنفسه ولولده ، وهما نبيان ، ثم دعا به لأمة من ذريته ، وهي هذه الأمة ، أمة محمد ﷺ ، ولهذا قال عقب ذلك ﴿رَبَّنَا وَأَبْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ﴾^(٢) وهو النبي محمد ﷺ ، بالإجماع ، فاستجاب الله دعاءه بالأميرين : ببعث النبي محمد ﷺ فيهم^(٣) وتسميتهم مسلمين^(٤) .

وقال الله تعالى ﴿وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾^(٥)

وهذه الآية ظاهرة في الاختصاص ، فإن تقديم « لكم » يستلزم الاختصاص ويفيد أنه لم يرضه لغيرهم ، فقد اختاره الله لنفسه ولهذه الأمة ، ويشير إلى هذا ما أخرجه البغوي بسنده عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : (قال جبريل ، قال الله تعالى : هذا دين ارتضيته لنفسي ، ولن يصلحه إلا السخاء وحسن الخلق ، فأكرموا بهما ما صحبتموه)^(٦) .

وأخرج إسحق بن راهويه في مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه عن مكحول في حديث طويل ، وفيه : (تسمى الله باسمين ، سَمَّى الله بهما أمتي ، هو السلام وسمى بها أمتي المسلمين ، وهو المؤمن وسمى

(١) سورة البقرة ، آية [١٢٨] .

(٢) سورة البقرة ، من آية [١٢٩] .

(٣) في حديث العرباض بن سارية رضي الله عنه : « أنا دعوة أبي إبراهيم وبشارة عيسى ورؤيا أمي التي رأت » ، أخرجه الإمام أحمد في مسنده ١٢٧/٤ ، ١٢٨ ، والبزار والطبراني ، قال الهيثمي ، وأحد أسانيد أحمد رجاله رجال الصحيح : مجمع الزوائد ٢٢٣/٨ .

(٤) الحاوي : للسيوطي ٢١٧/٢ - ٢١٨ ، الطبري ٧٤/٣ - ٧٥ وتعليق الشيخ شاکر ، ابن كثير ١٨٤/١ ، تفسير أبي السعود ٢٦٠/١ .

(٥) سورة المائدة ، آية [٣] .

(٦) تفسير البغوي ، ٩/٢ - ١٠ ، وانظر : الطبري ٥٢٣/٩ شاکر ، البحر المحيط ٤٢٦/٣ ، الحاوي : للسيوطي ، نفس الموضع .

بها أمتي المؤمنين^(١) . قال السيوطي : وهذا الحديث صريح في اختصاص أمة ﷺ بوصف الإسلام ، ولذلك أطبقت السنة الخلق كلهم من الصحابة والتابعين وأتباعهم والمجتهدين والفقهاء والعلماء على اختلاف فنونهم ، والمسلمين بأسرهم ، واليهود والنصارى والمجوس وسائر الفرق حتى الحيوانات والشجر والحجر في آخر الزمان على تسمية من كان على دين موسى يهودياً ، ومن كان على دين عيسى نصرانياً ، ومن كان على دين نبينا محمد ﷺ مسلماً^(٢) لا يمتري في ذلك أحد ، وما كان هذا عن فساد ، بل هو الحق المطابق للواقع^(٣) .

تحرير محل النزاع :

ونضع هنا كلمة قيمة لابن تيمية - رحمه الله - يحرر فيها محل النزاع ، قال : وقد تنازع الناس فيمن تقدم من أمة موسى وعيسى ، هل هم مسلمون أم لا ؟

وهو نزاع لفظي ، فإن الإسلام الذي بعث الله به محمداً ﷺ المتضمن لشريعة القرآن : ليس إلا أمة محمد ﷺ ، والإسلام اليوم عند الإطلاق يتناول هذا ، وأما الإسلام العام المتناول لكل شريعة بعث الله بها نبياً فإنه يتناول إسلام كل أمة متبعة لنبي من الأنبياء .

(١) أخرجه إسحاق بن راهويه في مسنده وابن أبي شيبة في مصنفه .

(٢) في حديث أبي هريرة عن قتال المسلمين لليهود قبل قيام الساعة وفيه : « فيقول الحجر والشجر : يا مسلم يا عبد الله هذا يهودي خلفي فتعال فاقطله إلا الغرقد فإنه من شجر اليهود » أخرجه البخاري في الجهاد ١٠٣/٦ ، ومسلم في الفتن ٢٢٣٩/٤ وأحمد في المسند ٦٧/٢ وفي حديث أبي أمامة عند ابن ماجه « ... فلا يبقى شيء مما خلق الله يتوارى به يهودي إلا أنطق الله ذلك الشيء ، لا حجر ولا شجر ولا حائط ولا دابة إلا قال : يا عبد الله يا مسلم ... » ابن ماجه في الفتن ١٣٥٩/٢ - ١٣٦٢ .

(٣) الحاوي للفتاوى : للسيوطي ٢١٩/٢ ، ٢٢٣ .

(٤) الرسالة التدمرية لابن تيمية : ١١٣ ، وهي نفسها في مجموع الفتاوى ١٢٨/٣ .

لماذا سُمِّي الدين بالإسلام؟

إن جميع ما في الأرض من مختلف الديانات إنما سُمِّيت بأسمائها إما نسبة إلى اسم رجل خاص أو أمة معينة ظهرت وترعرعت بين ظهرانيها أو بلد نشأت فيها ، فاليهودية سميت بهذه الاسم نسبة إلى أرض اليهودية ، أو لأنها ظهرت بين ظهراني قبيلة تعرف بيهودا وهو اسم أحد أسباط يعقوب عليه السلام ويسمى أتباعها : الموسويين نسبة إلى موسى عليه السلام .

والنصرانية : سميت بهذا الاسم نسبة إلى بلدة الناصرة ، بلد المسيح عليه السلام ، وتسمى أيضاً المسيحية نسبة إلى المسيح عليه السلام وإليه أيضاً ينسب أتباعه فيقال : المسيحيون .

وهكذا اشتهرت أيضاً البوذية مثلاً بهذا الاسم نسبة إلى بوذا ، وهو لقب باني هذه النحلة ، وكذلك الزرادشتية أخذت اسمها من حامل لوائها زرادشت .

أما الإسلام ، الدعوة العامة للناس جميعاً التي ختم الله تعالى بها الرسالات السابقة كلها ، فإنه لا ينتسب إلى أمة بعينها ، ولا إلى بلد ظهر فيه ، ولا إلى النبي الذي أنزله الله عليه ، وإنما يدل اسمه على صفة خاصة يتضمنها معنى كلمة الإسلام .

ومما يظهر من هذا الاسم : أنه ما عني بإيجاد هذا الدين وتأسيسه رجل من البشر ، وليس خاصاً بأمة معينة دون سائر الأمم ، وإنما غايته أن يحلي أهل الأرض جميعاً بصفة الإسلام^(١) .

(١) انظر : مبادئ الإسلام : لأبي الأعلى المودودي ، ٥ ، دعوة الحق أو الحقيقة بين المسيحية والإسلام : للقاضي منصور حسين عبد العزيز ٥٣٧ ، ٥٤٨ ، الله واحد : لمحمد مجدي مرجان ١٥٧ ، ١٥٨ .

وهذه الأمة ... الأمة المسلمة :

وكما اختص الله تعالى هذا الدين باسم الإسلام ، اختص أيضاً هذه الأمة باسم « الأمة المسلمة » وباسم « المسلمين » ومن خلال هذا الاختصاص نلمح جملة معانٍ بارزة كانت وراء ذلك الاختصاص بهذا الاسم .

ففي ذلك تكريم وتشريف لهذه الأمة على غيرها ، حيث اختصها الله تعالى باسم أطلقه على أنبياء الأمم السابقة ، فكانوا هم المسلمين ، وهذه الأمة هي الأمة المسلمة ، وبذلك تتأكد وشائج الصلة بين هذه الأمة وبين من سبقها ، فهي ليست مقطوعة النسب ، وليست بدعاً بين الأمم .

كما جاءت هذه التسمية والاختصاص بها استجابة لدعاء إبراهيم عليه السلام حيث قال وهو يرفع القواعد من البيت وإسماعيل ﴿ رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَيْنِ لَكَ وَمِنْ ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُسْلِمَةً لَكَ ﴾^(١) فالذرية المسلمة والأمة المسلمة

من نسل إبراهيم عليه السلام ، وهو الذي سماها أيضاً بهذا الاسم ﴿ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِنْ قَبْلِ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ ﴾^(٢) .

واشتملت شريعة الإسلام على فواضل العبادات مما انفردت به بين الرسالات من الجهاد والحج والوضوء والغسل من الجنابة ونحو ذلك مما اختصت به الأمة المسلمة ولم يكتب على غيرها من الأمم ، وإنما كتب على الأنبياء فقط^(٣) .

(١) سورة البقرة ، آية [١٢٨] .

(٢) سورة الحج ، آية [٧٨] .

(٣) اقرأ — إن شئت — الإعلام بمنابغ الإسلام : لأبي الحسن العامري ١٢٩ — ١٨٥ ، الإعلام بما في دين النصارى من الفساد والأوهام وإظهار محاسن دين الإسلام : للإمام القرطبي ٤٣٨ وما بعدها ، ففيهما أبحاث نفيسة في مزايا الإسلام في مجالات شتى .

وفي هذه الأمة تحقق معنى الإسلام ، الذي هو الاستسلام والانقياد والإذعان لله رب العالمين ولم تدعن أمة لنبيها كما أذعنت هذه الأمة وقبلت ما جاء به من عند الله وانقادت له بلا اعتراض فاستحقت لهذا كله الاختصاص باسم الأمة المسلمة وكانت جديرة بأن تكون ، كما أراد الله تعالى لها ﴿ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ ﴾ .

وهذا كله يلقي على عاتق هذه الأمة واجبات عظام ومسؤوليات كبيرة ، ينبغي أن تقدرها حق قدرها وأن تحملها بقوة لتقوم بدور القيادة والريادة لهذه البشرية ، والشهادة على سائر الأمم ، ولن يكون ذلك إلا بعودة صادقة إلى منابع القوة والعز والتمكين ، وذلك بالتمسك بهذا الدين عقيدةً وعبادةً وشريعةً كاملةً للحياة ، وعندئذ يتحقق وعد الله سبحانه ، ولن يخلف الله وعده أبداً ﴿ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ ^(١) .

والحمد لله رب العالمين .

(١) سورة النور ، آية [٥٥] .